الموسيقى أبرز صفات الشعر

ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر
المبحث الثالث من الفصل الأول
(ص12-15)

كان القدماء من علماء اللغة العربية لا يرون في الشّعر أمرا جديدا يميّزه من النثر إلاّ ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي. وكان قبلهم أرسطو في كتاب الشّعر يرى أنّ الدافع الأساسي للشّعر يرجع لعلتين: أوّلهما غريزة المحاكاة أو التقليد، والثانية غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنغم. ثمّ بدأ النّقاد في العصور المتأخّرة يرون في الشّعر أمورا أخرى يعبرون عنها بالصور والأخيلة حيناً[1]، ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسي[2] حينا آخر، وأخيرا يجردّون الشّعر من المنطق وما يمتّ للعقل ونظام تفكيره بصلة[3]. فإذا حاولوا تعريف الشعر رأينا تباينا واختلافا، ولم نجدهم يستريحون أو يتّفقون على تعريف جامع مانع. ونحن نسوق هنا طرفاً من تلك التعاريف المختلفة لبعض الأدباء وناقدي أوروبا:

1- ماثيو أرلوند[4]: يقول أن الشعر هو نقد الحياة والكشف عن القيم التي يراها الشاعر في هذه الحياة أوفي جزء منها يهتم به الشاعر!!

ألستم ترون معي أن هذا التعريف ينطبق على الشعر والنثر معا ؟ فليس هناك من يكتب حول الفراغ المطلق.....

2- شيلي[5]: يصنف الشعر بأنه " خير كلمات صُفَّتْ في خير نظام" فإذا تساءلنا عن مقياس للوصف " خير" لم نكد نظفر بما يقنع ... وذلك لأن النثر العلمي ليس إلا في الحقيقة إلا خير كلام نظم ورتب خير نظام بل قد ينطبق مثل هذا التعريف على بعض الإعلانات التي تختار ألفاظا اختيارا دقيقا وترتب كلماتها خير ترتيب.

3- ومن الأدباء من يصف الشعر بأنّه عاطفة يتذّكرها الشاعر وقت الهدوء ومنهم من يقول: "هو ذلك الكلام الخالد"[6]، ومنهم من يشير إلى الشعر قائلا " الشعر طريقة خاصة من طرق استعمال اللغة"[7].

---

1 -

2 -

3 -

4 -

5 -

6 - يقول طه حسين في الفصل الثالث من كتابه حافظ وشوقي: المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر الذي قيل فيه، ويتصل بنفوس الناس الذين يُنشد بينهم، ويُمكّنهم من أنْ يذوقوا هذا الجمال حقًّا، فيأخذوا بنصيبهم النفسي من الخلود. ولكنك ستسألني: وما ذوق العصر؟ وما قيمة الاتصال بين الشعر والذوق العصري؟ وكنت أحب أنْ أذكرك مجالس أخرى كانت بيننا تجيبك على هذا السؤال، ولكن قومًا غيرك يدعونني إليهم، ولهم عليَّ مثل ما لك من حق، فإلى وقتٍ آخر.

وكلّ هذه المحاولات إن دلت على شيء فإنما تدلّ على أنّ ناقدي الأدب لا يقنعون من الشعر بالصورة ونظامه الخاص، ويحاولون التفتيش في معانيه لعلّهم يظفرون فيها بأسرار وخصائص أخرى تميزه من النثر. ولذا نراهم يعمدون إلى إثارة العواطف وإلى الأخيلة فيتخذون منها خاصّة تغلب في الشعر، إن لم ينفرد بها دون النثر. ثمّ هم يحدّثوننا أحيانا عن نوع من الشّعر يخاطب العقل والحكمة، ويبعد كلّ البعد عن الخيال والعاطفة. فإذا أحسّوا في أقوالهم بنوع من الاضطراب قالوا في صراحة: "نحن لا نستجيب للشّعر عن طريق العاطفة وحدها، ولا نستجيب له عن طريق العقل وحده، وإنما نستجيب له بكلّ نفوسنا وبكل ما فينا من عاطفة وذكاء. وخير الشّعر ما كان مزيجا من عاطفة وعقل معا، من اتزان وهوج معا ، واقعيّا وخيالا معا. وتلك هي الحياة".

ولسنا نبغي هنا أن نثير جدلا أو نقاشا مع المحدثين من ناقدي الأدب حول الشّعر ومعناه وخصائصه، لأنهم جميعا يلجأون آخر الأمر إلى صورة الشّعر من أوزان وقوافي، ويرون فيها الخاصية الواضحة التي لا غموض فيها ولا إبهام. يلجأون آخر الأمر إلى موسيقى الشعر فيرونها تزيد من انتباهنا وتضفي على الكلمات حياة فوق حياتها، وتجعلنا نحسّ بمعانيه كأنّها تمثّل أمام أعيننا تمثيلا عمليا واقعيا. هذا إلى جانب أنّها تهب الكلام مظهرا من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولا مهذّبا تصل معانيه إلى القلب بمجرّد سماعه. وكلّ ذلك مما يثير منّا الرغبة في قراءته وإنشاده وترديد هذا الإنشاد مرارا وتكرارا.

ونثر الكلام قد يشتمل على نوع من الموسيقى، نراها في صعود الصوت وهبوطه أثناء الخطاب، كما قد نراها في صورة قوافٍ تنتهي بها فقرات ما يسمى بالسجع، ذلك الذي يلتزم فيه غالبا طول معين، وعدد من المقاطع يكاد يكون محددا. ففي كلّ هذا موسيقى، ولكنّها في الشّعر من نوع أرقى وأعمق، بل هي في الشّعر أسمى الصور الموسيقية للكلام وأدقها، لأنّ نظامها لا يمكن الخروج عنه.

وليس يضير الشّعر أن تستعار موسيقاه في نظم ما ليس من أغراض الشّعر كما فعل بعض القدماء في نظم حقائق العلوم. وليس يبرّر مثل هذا أن نسلب الشّعر خير خصائصه، وأن نجرّده من خير معالمه. فالغراب لا يصبح طاووسا حين نخلع عليه ريش الطاووس، وإن نحن قمنا بهذا لم نكن قد جرّدنا الطاووس من أوضح معالمه وخصائصه؛ وهي زينة الريش وهيئته. وهل يضير

[7] - يتفق أغلب النقاد والدارسين على أن ميزة الشعر تكمن في الطريقة التي يقال بها، وليس في المقول نفسه، يقول "جون كوهين" مشيرا إلى هذه الحقيقة: "الشاعر بقوله لا بتفكيره وإحساسه، إنه خالق كلمات وليس خالق أفكار، وترجع عبقريته كلها إلى الإبداع اللغوي"(جون كوهين: بناء اللغة الشعرية، تر: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط ،03ص .40). وينقل عن الشاعر الفرنسي (مالارميه) قوله: "إننا لا نصنع الأبيات الشعرية بالأفكار، بل نصنعها بالكلمات" (المرجع نفسه ،ص .41). هذه الحقيقة الخاصة بلغة الشعر موجودة في تراثنا النقدي؛ فقد نبه إليها العالم "عبد القاهر الجرجاني" الذي رأى أن شعرية النصّ تكمن في (النظم) الذي يعني عنده "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[7]. ولما كانت الصياغة هي التي ترتقي باللغة الشعرية التي دونها لا يكون الشعر شعرا، فعلى الناقد المحلل الذي يريد مقاربة النصّ الشعري واستكناه خصائصه، أن يتعامل مع لغته؛ لأنها الموطن الوحيد للشعرية، وكما قال (جون كوهين) فإنّ "الشعر شعر بفضل بنيته ،وليس بفضل مضمونه" (جون كوهين: بناء اللغة الشعرية، ص145).

الملوك والحكّام أن تُستعار ملابسهم وتيجانهم ومواكبهم وكلّ ما لهم من مظاهر السلطان فتمثّل فوق المسارح وفي دور السينما؟ وهل مثل هذا ممّا يجعلنا نقول لم يكن التّاج من خصائص الملوك، لأنّ فلانا الممثل قد لبسه في رواية كذا؟.

كذلك إذا رويت أشعار أمة من الأمم وقد خلت من القوافي فليس مثل هذا مما يسلب الشّعر كلّه من موسيقاه، أو ان يجرّده من أبرز خصائصه؛ وهي الموسيقى والنغم. وخروج شاعر على نظام القوافي والتزامها، أو حيدة شعب من الشعوب عن مراعاة القوافي في أشعاره، لا يبرر أن نقول مع بعض القائلين: يجب أن نلتمس في الشعر أمرا آخرا غير الموسيقى يميزه من النثر.

فالشعر جاءنا منذ القدم موزونا مقفى، والشعر لا يزال في جل الأمم موزونا مقفى، نرى موسيقاه في أشعار البدائيين وأهل الحضارة، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ، ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء.

فليحاول النقاد اذن ما شاءت لهم المحاولة، التفتيش عن كل أسرار الشعر، وليصوروها لنا ما شاء لهم التصوير، وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات وتشبيه ومجاز، وليؤلفوا من مثل هذا علما أو فنا للناس، غير أنّا نطمع منهم أن يضعوا موسيقى الشعر في محلها الأسمى، وألاّ يقرنوها بشيء آخر قد يعثرون عليه في بعض الأشعار، او يتعثّرون في البحث عنه والتنقيب. فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاماً موزونا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر وتحسّ به القلوب.